

الدين وعلم النفس الحديث

الحياء

لسنا في حاجة الى اثبات الصلة بين الحياء والدين لان الاحاديث «الحياء شعبة من الايمان» و « اذا لم تستح فاصنع ما شئت » وغيرهما هي احاديث معروفة متداولة. ولا نريد ان نبحث في الفرق بين الحياء والخجل والحشمة الخ، لان هذه فروق لغوية لاقيمة لها في بحثنا هذا. ولكنتا نريد —

(١) ان نلفت النظر الى بعض مظاهر الحياء التي كثيرا ما نسيها فهمها (٢) ان نحاول فهم الحياء وتحليله بأن نطبق عليه بعض نتائج ابحاث علم النفس الحديث ليس الحياء محصورا في احمرار الوجه واطراق الرأس وأمثاله من المظاهر المعروفة بل انه له مظاهر أخرى اقل وضوحا وأكثر تعقيدا. ترى مثلاً ان بعض الناس يخاطبك بصوت مرتفع حين لا حاجة لرفع الصوت ويبدى انواعاً من الجراءة والوقاحة وعدم الاكتراث ولا داعي الى شيء من ذلك. قد يخطر لك ان في هذا السلوك شيئاً من الغرابة ولكنك لا تشك مطلقاً في كونه جرأة وقلة حياء. ولكنك اذا درست هذا النموذج من الناس ودققت في ملاحظة سلوكهم يتبين لك ان ما تظنه قلة حياء هو في الحقيقة مقاومة شدة الحياء ... ارتفاع الصوت هو وسيلة الى اخفاء ما قد يصيب الصوت من الاضطراب بسبب الخجل. والوقاحة ليست الا ستارا تخفي وراءه مظاهر الارتباك الذي يسببه الحياء. وهكذا يمكنك ان تفسر أيضاً الجراءة التي في غير محلها وعدم الاكتراث وغيرها. وترى آخرين اذا دخلوا محلا عموميا — حديقة جروني مثلاً — وكانوا مضطربين ان يخترقوا صفوف الجالسين أخذوا ينظرون الى ابعد نقطة في المحل كأنهم يبحثون عن شخص ينتظرهم هناك مشغولين بالتصفيير أو البحث في جيوبهم عن المنيديل ومسح جيبهم ورقبتهم ولو كان الفصل شتاء. أو يخرجون الساعة وينظرون فيها طويلاً كأنهم يفكرون في حلول الميعاد وعدم حضور الشخص الذي ينتظرونه. أو يغيرون العصا والقفاز من يد لأخرى. وقد يقفون في وسط المحل ويدهم على خاصرهم أو تلاعب سلسلة الساعة أو ازرار الصدر. واذا كانوا اثنين رأيتهم يتحدثون كما لو كانوا وحدهم

في المكان و يغربون في الضحك غير ملتفتين الى أحد من الجالسين. قد تحسد أمثال هؤلاء. وتقول لنفسك ان تلك هي الشخصية الحرة القوية التي لا تعرف آلام الخجل، وتتمنى أن يكون لك ولو بعض تلك الحرية. ولكنك لو أوقفت احد هؤلاء بغتة أثناء اختراقه الصفوف لرأيت أن حريته وعدم اكترائه يتحولان إلى ارتباك ظاهر وصغيره يصير شيقا ونظره الثابت يضطرب وتراه ينظر إلى عدة جهات في وقت واحد. وذلك لانك فاجأته بمقاطعة تفكيره الذي كان منحصرًا في مهمته الشاقة—مهمة مقاومة الحياة من مئات الاعين التي يظن انها تنظر اليه. وهناك آخرون اذا صافحتهم ترتعد يدهم في يدك وتشعر انهم يحاولون التخلص منك، وبعضهم لا يطبق المصافحة مطلقا ويجذب يده بشدة اذا انت اطلت المصافحة. بعض الناس يقولون ان ذلك دليل على خبث الطوية وسوء النية نحو الشخص الذي لا يطبقون مصافحته. ولكننا نعتقد ان هذا احد مظاهر الحياة الذي نسيء فهمه ونخطيء في تأويله لان هؤلاء يفعلون ذلك دائما ومع كل الناس حتى مع الذين يلتقون بهم للمرة الاولى ولا يعرفون شيئا عنهم، وانما هو نوع من أنواع الخجل. فكما أن بعض الناس يخجلون اذا اطلت النظر اليهم فهؤلاء ايضا يخجلون اذا اطلت مصافحتهم. ومن مظاهر الخجل الكبرياء. فقد عرفت فتاة انكليزية يكرها اكثر معارفها لتكبرها. ولما خاطبتها في ذلك اعترفت بان ذلك حياة لا كبراً. وانها اذا اجتنبت الناس أو ظهرت كأنها لا تكترث بهم فهي انما تفعل ذلك لتحمي نفسها منهم لانها تخجل حتى من سماع صوتها ووقم أقدامها اذا كان هناك شخص آخر يسمع أو ينظر... وهذا يذكرني بأحد أقاربى. كنا نقول عنه انه يمشى كالجمامة وينظر كالارنب ويتكلم كالأفعى. وتوول ذلك تأويلات مختلفة ولكنه في الحقيقة كان من الذين يستحون من سماع صوتهم ووقع أقدامهم. وعرفت شابا شرقيا كان مشهور بكثرة التواضع ينحنى لكل صغير وكبير ولا يدخل قبلك محلا ولو كنت أنت البواب لذلك المحل ويحفظ عددا كبيرا من عبارات الاحترام والمجاملة ويستعملها مع الجميع على السواء، وكان محبوبا عند معارفه واصدقائه ولكن كان في تواضعه شيء يضايقني شخصا. شيء غريب وغير طبيعي، وبعد مراقبته مدة طويلة تبين لي ان التواضع هو سلاحه الذي يبقى به مسيات الخجل، يكثر من التأدب والتواضع ليشغلك عن نفسه ويشغل نفسه عن نفسه. هذه بعض مظاهر الحياة التي لاحظتها

و درستها شخصيا، وهي تدل على ان الحياء اقوى تأثيرا في سلوكنا واكثر انتشارا مما نظن. والآن ننظر في الحياء نفسه .

الحياء في العربية من اسماء الرحم كما في المخصص وغيره من كتب اللغة. وفي الالمانية ايضا يطلقون لفظة Scham على الحياء الذي هو بمعنى الخجل ويطلقونه ايضا على الاعضاء الجنسية للرجل والمرأة. ومن معاني لفظة Pudeur الفرنسية الحياء والعفة وعلاقة العفة بالاعضاء الجنسية واضحة. وفي العبارة الانكليزية Private Parts ما يشير الى نفس العلاقة بطريقة غير مباشرة. وفي بعض اللغات العربية الدارجة نجد ما يقرب من ذلك. ففي تونس مثلا يسمون الاعضاء الجنسية للرجل « محاشم » من الحشمة وفي الجزائر والمغرب الاقصى توجد عبارات يمكن ان تدل على الحياء وعلى العورة معا. فكان الحياء يذكرنا بالاعضاء الجنسية والاعضاء الجنسية تذكرنا بالحياء.... ثم اتنا نلاحظ ان درجة الحياء تختلف باختلاف الجنس. الانثى تكون غالبا اكثر حياء من الذكر الذي في سنه. ولعل ذلك يرجع الى ان الانثى اكثر شعورا باعضائها الجنسية من الذكر. الرجل اذا انهمك في عمل من الاعمال قد ينسى اعضاءه الجنسية وكل ما يتعلق بها مدة طويلة. اما المرأة فلا تستطيع ذلك لان الحيض الذي يتكرر شهريا ويدوم اياما وما يتبعه من الاضطراب الجسمي والنفسى يذكرها دائما بانها انثى وأن لها اعضاء جنسية. ثم ان المنطقة الجنسية في المرأة اوسع منها في الرجل. ثديا المرأة منطقة جنسية مهمة ليست اقل اهمية من الرحم نفسه. وراثبها ايضا منطقة جنسية. واسفل بطنها واعلى فخذيها وعجيزتها وساقاها، كلها مناطق جنسية. فجسم المرأة يكاد يكون كله منطقة جنسية او مجموعة مناطق جنسية تفتن وتفتن وتثير الشهوات وتثار فيها الشهوة. وذلك هو سبب الخصومة بين الدين والفرن في هذه المسألة. النحت والتصوير يميلان إلى الجمال العارى لا براز التدين والبطن والفخذين وبقية المناطق الجنسية. والادب يملأ بذكر الترائب المصقولة والنهود المستديرة والكشع اللطيف والعجيزة الضخمة والساق الدماء. والدين يعتبر كل ذلك « عورة » ويحرم كشفه ويعد كشفه حرام وقلة حياء. فالمرأة اكثر حياء من الرجل لانها تشعر أن كل جسدها عورة وأن النظر اليه لا يكون الا نظر شهوة. ونلاحظ ايضا أن الحياء يختلف باختلاف السن. فهو يكثر جدا عند المراهقين ثم يأخذ في التناقص

شيئا فشيئا عند الشبان، فالفتيان فالكهول فالشيوخ. قد يطرأ على هذا الترتيب الاضطراب والتداخل وقد يكثر عدد الشواذ في بعض البيئات لأسباب مختلفة . ولكن بما لا شك فيه ان أغلب المراهقين من أكثر الناس حياة وأكثر الشيوخ من أقل الناس حياة. وذلك الان المتقدمين في السن لكثرة معرفتهم واختبارهم للأعمال الجنسية، قد زال منهم الخوف من تلك الاعمال، فهم ينظرون الى المرأة كما ينظرون الى طعام اعتادوا اكله أو ثوب اعتادوا لبسه بدون خوف ولا خجل ولا ارتباك. وليسوا كالشبان الذين ترتعد فرائضهم اذا لامس جسمهم جسم امرأة أو نظروا الى جزء صغير من ثديها أو مما فوق ركبتيها . هذا بعض ما يمكن ان نصل اليه بالملاحظة والاستنتاج فاذا نحن استعنا بالذاكرة ورجعنا بها الى عهد الطفولة تذكر اننا نسمع كلمة حياة لأول مرة عند ما نكون لا نزال بين الثالثة والرابعة و نكشف عن أعضائنا الجنسية أو نلصقها أو نلعب بها أو نشير اليها بالكلام فيقال لنا أولا — لا تفعل ! واذا لم تنته زجر بالعبارة — (الاستسحي !) أو ما يقابلها في مختلف اللغات واللهجات. فاذا نحن تمادينا نعاقب بالضرب أو بغيره فنفهم حينئذ ان الحياة هو أن لا نلعب بأعضائنا الجنسية وان لا نتكلم عنها واننا اذا فعلنا ذلك نعاقب. ولدكتنا نستمع على ممارسة ذلك سرا لاننا نجد لذة في ذلك اللبس واللعب اللذان يصيران فيما بعد استمناء وعادات سرية أخرى. فاذا عثر علينا ونحن نفعل شيئا من ذلك تذكر العقوبة فنخاف ونرتبك و (نخجل) و يقال لنا من جديد ان ذلك الفعل هو عيب وقباحة و (قلة حياة) ولكن الغريزة الجنسية لا تخوف بالعقاب ولا تشبع بالمواعيد. لذلك تبقى قوية جريئة ملحة واذ ذاك يتبدى العراك بين العقل الظاهر والعقل الباطن أو الذات المهدبة والذات الفطرية. الاولى تنكر الغريزة الجنسية وتكتمها وتتناساها. والثانية تطالب وتلح وتثور. ونتيجة هذا العراك هي الحياة أي الخوف من أن يتنصر العقل الباطن على العقل الظاهر ففتضح. والدليل على ذلك هو انك لا تكاد ترى للحياة اثرا في العائلات العصرية المتعلمة حيث تقل الحرافات والتقاليد والخوف من عقاب الدنيا والآخرة، وحيث يتعلم الطفل ان اعضاءه الجنسية هي كغيرها من الاعضاء وليست عورة أو سوءة ويفهم أن سوء استعمالها لا يليق بنفس الطريقة التي بها يفهم ان سوء استعمال فيه أو يديه لا يليق

ودليل آخر هو غياب الحياء مدة النوم عندما تضعف رقابة العقل الظاهر الاشياء التي نستحي من فعلها في اليقظة نفعلها بدون حياء في المنام. اذا اشتهى الانسان امه أو أخيه مثلا في حالة اليقظة يستحي ويطرده الفكرة من نفسه في الحال. ولكن اذا حصلت تلك الشهوة في الحلم فقد يقضى وطره دون ان يشعر بأى خجل او ندم لان العقل الظاهر يكون اذ ذاك غير متنبه.

أرد دونك يقظانا ويأذن لي ه عليك سكر الهوى إن جئت و سنانا
هذا هو منشأ الحياء فاذا تمكن وصار عادة يمتد تأثيره الى كل الشخصية ويصير
ضعفا خلقيا عاما او نوعا من الجبن فيستحي الانسان من كل شيء. من التصريح بمبدئه
والمجاهرة بعقيدته والتعبير عن آرائه، ويستحي حتى من الحق ويكذب ويخضع ويرأى
من شدة حيائه.

اما اهمية الحياء في الدين فلا صعوبة في فهمها اذ الجانب العملي من الدين هو المنع
والتحريم. والحياء يساعد على ذلك. لان الذى لا يستحي لا يقتنع بسهولة بحكمة الحرام
والحلال والمكروه والمستحب بل يشك ويسأل لماذا؟ ويجادل في آيات الله لانه
لا يستحي.

طاهر خميرى

همبورج



الحب

أول الحب في القلوب شرارة	تخفى نارة وتظهر تاره
ثم يرقى حتى يكون سراجا	لذويه فيه هدى واناره
ثم يرقى حتى يكون مع الايام	نارا حمراء ذات حراره
ثم يرقى حتى يكون أتونا	بحراراته تذوب الحجاره
ثم يرقى حتى يكون حريقا	فيه هلك لاهله او خساره
ثم يرقى حتى يمثل بركا	نا يرى الناس من بعيد ناره
ثم يرقى حتى يكون جحيما	عن تفاصيلها تكل العبارة

جميل صدقي الزهاوى